﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر الله تعالى إنعامَهُ على بني إسْرَائِيل في المأكَل والمَشْرَب على وجهٍ يَصِلُهم فيهِ دُون مشقَّة أو تكلّف؛ ذكرَ ما قَابَلُوا به تلكَ النِّعَمَ الجليلَةَ من عدم الشُّكْرِ وطلبِ التحوُّلِ عنها إلى ما هو أَدْنَى، ثمَّ ما ترتَّبَ على كفرانِهم النِّعَمَ من المجازاةِ والعقوبَةِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿طَعَامٖ﴾: الطَّاءُ والعين والميم تدور تصاريفُها على ما يدخل من الفم إلى الجَوْفِ غِذاءً لِلْبَدَن، ومِنْهُ: الطَّعام[2]، واختص في عُرْف الشرع بالبُرِّ[3]، ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه بقوله: " كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الفِطْرِ صَاعًا مِن طَعَام، أوْ صَاعًا مِن شَعِيرٍ، أوْ صَاعًا مِن تَمْرٍ، أوْ صَاعًا مِن أقِطٍ، أوْ صَاعًا مِن زَبِيبٍ"[4].

والطَّعامُ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ بمعناهُ الأعَمِّ؛ لأنَّ مطعومَهُمْ لم يكُنْ بُرًّا، وإنَّما كان المنَّ والسَّلْوَى.

2) ﴿تُنۢبِتُ﴾: النّون والباء والتَّاء تدور اشتقاقاتُها على نماءٍ في مَزْرُوعٍ[5]، ويُتَجَوَّزُ به

(1) البقاعِيّ، نظم الدّرر: 1/412، والآلوسّي، روح المعاني: 1/276-277.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طعم).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (طعم).
(4) رواه البخاري، حديث رقم: (1506).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبت).

في النَّشأَةِ والتَّربيةِ، فيقال: نبتَ فلانٌ في مَنْبَتِ صِدْقٍ، وفي أكرم المَنَابِت[1]، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 54]؛ فَشُبِّه إنشاؤُها بإنباتِ النَّبات الغَضِّ على وجهِ الاستعارة[2].

والنَّبات في قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ هُوَ ما ينموُ فيهَا، سواءٌ أكان له ساقٌ وهو الشَّجَرُ، أم لا ساقَ لهُ، وهو المسمَّى: النَّجْمَ[3].

3) ﴿بَقۡلِهَا﴾: البَاء والقافُ واللَّامُ تدور تصريفَاتُها على نباتٍ أو شيءٍ ينبتُ ضَعيفًا في ظاهرِ شيءٍ[4]، ومِنْهُ الباقِلُ؛ وهو ما يخرج في أعراض الشَّجرِ؛ إذا دَنَا الرَّبيعُ، يقال: أَبْقَلَتِ الأرضُ؛ إذا أنبتَتِ البَقْلَ[5]، والبَقْلُ في قول الله تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا﴾: هو ما ينبُتُ في الأرضِ ممَّا لا ساقَ له[6].

4) ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾: القِثَّاءُ جمعُ: قِثَّاءَةٍ[7]، وهو اسم جنس جمعيٍّ؛ لكونِهِ ممَّا يُفرَّق بينه وبين مفردِهِ بالتَّاءِ، والقِثَّاءُ: نباتٌ تُشبِهُ ثمارُهُ الخيارَ، إلَّا أنَّه أطوَلُ[8]، وقد يُطلق على الخِيار[9].

5) ﴿وَفُومِهَا﴾: الفاءُ والوَاو والميمُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على صلاحيَّةِ شيءٍ لِلْأَكل، فيُملأُ الفمُ بهِ، كاللُّقمة مِنَ الخبزِ، وسمِّيتِ الحبوبُ فومًا؛ لصلاحيَّتِها لِلْأكلِ، ولما يَؤولُ إليه أمرُها من مِلءِ الفمِ بهَا[10].

ويُطلَقُ الفومُ على القِطْعَةِ؛ تشبيهًا لها باللُّقمة في مقدارِهَا، يقال: قُطِّعَتِ الشَّاةُ فُومًا فُومًا؛ أَي: قِطَعًا قِطَعًا[11].

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نبت).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 3/235.
(3) محمّد بن الطيّب الفاسي، تحرير الرِّواية، ص: 478.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بقل).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (بقل).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (شجر).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (شجر).
(8) حسن عزّ الدّين الجَمَلَ، مخطوطة الجمَلِ: (قثأ).
(9) الخليل، العين: (قثأ)، ومحمّد الكَرمانيّ، الكواكب الدّراري: 20/55.
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فوم).
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فوم).

واختُلِفَ في معنَى الفوم في قول الله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾ على أقوالٍ؛ هي: الحِنطةُ، والحبوبُ، والثُّومُ[1]، فأما الأَوَّلُ؛ فداخلٌ في الثَّاني؛ لأنَّ الحنطةَ من جملة الحبوبِ، وأما الثالث فلقرينة ذكر البصل بعده[2].

ونقل الزَّجَّاجُ إجماعَ أهل اللُّغةِ على أنَّ الفومَ: الحِنطةُ وَسَائِرُ الحُبوب التي تُخْتَبَزُ، وَضَعَّفَ القولَ: بأنَّ الفومَ الثُّومُ؛ وأبان أنَّه مخالفٌ لإجماعِ أهل العربيَّةِ، ولا يُساعِدُهُ معنى الآية، فقال: "وهذا ما لا يُعرف أنَّ الفومَ الثُّوم، وههنا ما يقطع هذا، فمحالٌ أن يَطْلُب القومُ طعامًا لا بُرَّ فيه، والبُرُّ أصل الغِذاءِ كلِّه"[3].

وأمَّا ما جاء مِن قراءة ابنِ مسعودٍ ﷺ: (وَثُومِهَا) بدلًا من ﴿وَفُومِهَا﴾، فهو مِن إبدالِ الحروفِ، كقولهم: وقعوا في عاثور شرٍّ وعافور شرٍّ، وكقولهم للأثافي: أثاثي، وللمغافير مغاثير، وما أشبه ذلك ممّا تقلب فيه الثّاء فاءً والفاء ثاءً؛ لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثّاء[4].

6) ﴿أَدْنَىٰ﴾: الدَّال والنُّون والحرف المعتلُّ تدور تصريفَاتُه على معنى: قُرْبِ الوصُولِ إلى المقَرِّ المُراد أو المُعْتَاد نُزولًا[5]، ومن ذلك: الدَّنيّ؛ وهو القريبُ[6].

وَالأصل في الدُّنُوِّ أن يكون إلى سُفْل، ومن هنا استُعْمل الدُّنُوّ في النُّزول المعنويِّ المفيدِ قِلَّةَ قيمةِ الشَّيءِ[7]، ومنه قيل للرجلِ الخسيس: دَنِيءٌ.

و﴿أَدْنَىٰ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: أخس[8]، وهو خسيسٌ بالنِّسبةِ لما رُزقُوه من المنِّ والسَّلْوَى.

7) ﴿مِصْرًا﴾: الميم والصّاد والرّاء لها معانٍ مختلفةٌ، منها: تحديدٌ في شيءٍ[9]، ومِنْهُ المِصر: وهو كلُّ بلدٍ مَمْصُورٍ، أي: محدودٍ[10].

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/71.
(2) الزحيلي، التفسير المنير: 1/173.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابُه: 1/143.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/130.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (دنو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دنى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (دنو).
(8) أبو عُبيد الهروي، الغريبين: (دنا).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مصر).
(10) الرّاغب، المفردات: (مصر).

وفي ﴿مِصۡرًا﴾ الواردِ في قول الله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ قولان[1]:

أحدهما: أنَّه البلَدُ المعروفُ المخصوصُ.

والآخر: أنَّه أيُّ بلد من البلدان، لا على التعيين، والمعنى: اهبطُوا مصرًا مِنَ الأمصارِ.

والثَّاني أقوى؛ لكونِهِ منصرِفًا، وجزَمَ بهذا التَّرجيحِ ابنُ كثير، والمعنى على ذلك: "أنَّ مُوسى عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتُم ليس بأمرٍ عزيز، بل هو كثير في أيِّ بلدٍ دخلتموهُ؛ وجدتُمُوه، فليس يُساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أَن أسألَ الله فِيهِ"[2].

8) ﴿ضُرِبَتۡ﴾: الضَّاد والرَّاء والباءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على غِلَظٍ يُخَالِطُ الرِّخو، أو يُداخِلُه مداخلةً قويَّة، فيتَمَاسَك، أو يَشْتَدّ، وَمِنْهُ: ضَرْبُ الدَّرَاهِمِ؛ فإنَّ ذلك يحصُلُ بتجميد الفِضَّة الذَّائبة في قالَب على هيئته[3].

وضَرْبُ الذِّلَّة في قول الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ بمعنى: أُحِيطَت بِهم كَإحاطةِ الْقبَّةِ بِمن نُصِبَت عَلَيْهِ[4].

9) ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: الذّال واللّام تدلّ تصاريفُها على خضوعٍ واستكانةٍ ولِينٍ[5]، ومنه الذِّلَّةُ؛ وهي الصَّغَار والهَوان[6].

والذُّلُّ: ما كان عن قَهْرٍ، ومِنهُ قول الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أي: كُن كالمقهورِ لَهُمَا[7].

والذُّلُّ إذا كان من جهةِ الإنسانِ نفسِه لنفسِهِ، فهُوَ محمودٌ[8]، ومنه قول الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54]، قال الزَّجاج: "أي: جانِبُهُم لَيِّنٌ على المؤمنين، ليس أَنَّهم أذلَّاء مهَانون"[9].

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/124.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/281-282.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضرب).
(4) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 579.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذلّ).
(6) محمّد الأمين الشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 4/184.
(7) الرّاغب، المفردات: (ذلّ).
(8) الرّاغب، المفردات: (ذلّ).
(9) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابُه: 2/183.

10) ﴿وَٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾: السِّين والكاف والنُّون تدل تصاريفُها على نقيضِ الحركة والاضطراب[1]؛ فهي دالَّةٌ على الاستقرار[2]، ومنه: السُّكون؛ وهو ثبوتٌ بعد تحرُّكٍ[3]. وتقول العربُ لكُلِّ شَيْءٍ مَاتَ: قد سَكَنَ[4]؛ لذهاب حركتِه، وَالمَسْكَنَةُ: مَفْعَلة من السُّكون، ومِنهُ سُمِّي المسكينُ بذلك؛ لقلَّةِ حركاته وفتور نشاطِه[5].

والمَسْكَنَةُ في قول الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ الفقرُ، وفُسِّر بأنَّهُ فقرُ النَّفْسِ، ولو كان غنيًّا في الظَّاهر، أو أنَّ المسكنَةَ الضَّعفُ[6].

11) ﴿وَبَآءُو﴾: الباء والواو والهمزة تدلُّ تصريفَاتُهَا على معنى: الرُّجوع[7]، يقال: بَاء بإثمه؛ إذا رَجَعَ بِهِ[8].

ومعنى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: وانصرفوا، ورجعوا بغضب من الله.

12) ﴿بِغَضَبٖ﴾: الغين والضَّاد والباء تدور اشتقاقاتُها على معنى الشدَّةِ والقوّة، ومِنْهُ سُمِّيت الصَّخرةُ الصُّلْبةُ بالغَضْبَةِ[9]، ومِنْهُ الغضَبُ؛ فإنَّه دالٌّ على شدَّةِ الغاضبِ وقوَّتِه، والغضب هو السُّخْط؛ ضد الرِّضا[10].

وغضبُ اللهِ تعالى المذكورُ في قوله سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ هو غضبٌ يليقُ بجلَالِ الله وعظَمَتِه، المتضمِّنُ سُخْطَه عليهم وعدمَ رضاه عنهم.

13) ﴿عَصَواْ﴾: العين والصَّاد والحرف المعتلُّ تدلُّ تصاريفُهَا على معنيين متباينَين؛ أحدهما: التَّجمُّعُ، والآخر: الفُرقةُ.

فمن الأوَّلِ: العصا، سُمِّيت بذلك لاشتمالِ يدِ مُمْسِكِها عَلَيْهَا، ثُمَّ قِيس على ذلك، فأُطلقت على الجماعة مطلقًا، وعلى جماعة الإسلام[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(3) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سكن).
(5) ابن الهائم، التِّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 78.
(6) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (سكن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بوأ).
(8) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (بوأ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصو/ى).

ومِن الثَّاني: قولهُم في الفَصِيلِ إذا لم يَتْبَعْ أُمَّهُ: عاصٍ[1]؛ فإنَّه إذا لم يَتْبَعْها؛ فقد فارقَهَا، ومنه العِصيانُ؛ لأنَّه مفارقَةُ المأمورِ بِهِ.

وفي كلام الرَّاغبِ ما يقتضي إرجاعَ هذا الأصلِ إلى الأوَّلِ؛ فقد قال: "عَصَى عِصْيَانًا؛ إذا خرج عن الطاعة، وأصله: أن يَتَمَنَّعَ بِعَصَاهُ"[2].

والعصيانُ في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ هو مخالفة ما أُمروا به[3].

14) ﴿يَعْتَدُونَ﴾: العين والدَّال والحرف المعتلُّ تدور اشتقاقاتها على تجاوزٍ وتقدُّم لما ينبغي أن يُقتصَر عليه[4]، وهذا التَّجاوزُ: إن اعتُبِرَ بالقلبِ؛ قيلَ له: عداوَةٌ ومعاداةٌ، وإن اعتُبر بالمشي؛ قيل له: عَدْوٌ، وإن كان إخلالًا بالعدلِ في المعاملة؛ قيلَ له: عُدوانٌ[5].

والاعتداء: تجاوزُ الحدِّ مطلقًا، ومعناه في قول الله تعالى: ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾: أي: "وتجاوَزُوا حَدِّي إلى ما نهيتُهم عَنْهُ"[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكُروا - يابني إسرائيل - حين أنزلنَا عليكُم طعامًا حُلوًا طيِّبًا -وهو المَنُّ- وطيرًا شهيًّا -وهو السَّلْوى- فمَلَلْتم، ولم تشكروا نعمةَ الله عليكم، بل طلبتُم الانتقالَ إلى غيرِها، فقلتم: يا موسى لن نَصْبِر على طعامٍ، لا تنوُّعَ فيه، ولا يتغيَّر مع الأيَّام، فادع ربَّك؛ ليُخرج لنا مِن نبات الأرض بُقولًا وقثَّاءً وحبوبًا وعدسًا وبصلًا، فقال موسى عليه السلام منكرًا عليكُم: أتستبدلُون هذه الأطعمةَ، وهي أقلُّ قَدْرًا بما اختاره الله تعالى، وأنزله لكُم حُلْوًا شهيًّا؟ انزِلُوا إلى أيِّ مدينةٍ مِنَ المُدُنِ؛ تَجِدُوا ما طلبتُمُوه متكاثِرًا. ولأجل تقديمِ اختيارهم على اختيار الله لهم؛ لزمَتْهم صفةُ الهوانِ وفَقْرِ النُّفوس، ورجعوا بغضبٍ مِن الله تعالى وسُخْط ملازمٍ لهم؛ لأنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله تعالى، ويقتلون أنبياءَهُ ظلمًا وعدوانًا جاحدين رسالَتَهُم؛ بسببِ مخالفتِهم أمرَ الله عز وجل ومُجاوَزَتِهم حدودَهُ[7].

(1) ابن سِيده، المحكم: (عصي).
(2) الرّاغب، المفردات: (عصا).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/421.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(5) الرّاغب، المفردات: (عدا).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/142.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/124-142، والخازن، لباب التّأويل: 1/49-50، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 9.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَوْجِيهِ الخِطَابِ إِلَى الخَلَفِ مَعَ أَنَّ القَائِلَ أَسْلَافُهُمْ:

وُجِّهَ الخِطاب لليهودِ زمَنَ النَّبيِّ ﷺ في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ مع أنَّ قائلَ ذلك هم أسلافُهُم؛ لكونِ المعاصرين للنّبي ﷺ ذرِّيَّتَهم وعلى دينِهم، وهم مُتَّبِعون لهم، فحُكمهم كحُكمهم.

رضا الأبناءِ عن مَعَاصِي الآباءِ مشاركةٌ قبيحةٌ ومتابعةٌ ذميمة

وقد ورد لهذا نظائرُ متعدِّدَةٌ؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ و﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: 48-49]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟﴾ [البقرة: 58]، في مواضعَ أخرَى؛ وفي كُلِّهَا خطابٌ للحاضِرين بحسب الظَّاهرِ؛ فما كان من تَعداد النِّعَمِ عليهم؛ فوجهه: أنَّ الإنعامَ على الآباء إنعامٌ على الأبناءِ، وما كان من ذكر مساويهم؛ فلأنَّ الذرِّيَّةَ راضيةٌ بهَا، فكأنَّهم مشاركُونَ للآباءِ فيها[1].

نُكْتَةُ النَّفْيِ بِـ﴿لَن﴾ بَدَلًا مِنْ (لَا):

الـكـشـفُ عـن عنادِ الشَّخصيَّة اليهوديَّة وشِدَّةِ إِعْنَاتِها

في تعبيرهم عن نفي صبرِهم بـ (لن) دون (لا) في قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ إشعارٌ بشدّة ضجرهم، وبلوغ الكراهية لهذا الطعام منهم منتهاها[2]، وفيه: إيماءٌ إلى شدَّةِ إعناتِهم؛ حيثُ عبَّروا عن طلبِهم بالحرفِ المستعمل لتأكيد النَّفي في الزّمنِ المستقبل، "فكأنّهم قالوا: اعلم أنّه لم يبق لك أمل في بقائنا معك على هذه الحالة من التزام طعام واحد، فإن كانت لك منزلة عند الله كما تزعم؛ فادْعُهُ يُخْرِجْ لنا ما يمكن معه أن نبقى معك؛ إلى أن يتم الوعد الّذي وعدك ووعدتنا، وهم يعلمون أنهم كانوا في بَرِّيَّة غير مُنْبِتة، وربما لم يكن قولهم هذا عن سآمة ولا أَجَمٍ من وَحْدَةِ

(1) ابنُ جُزيّ، التَّسهيل: 1/83.
(2) محمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/148.

الطعام، ولكنه نَزَقٌ وَبَطَرٌ، وَطَلَبٌ للخلاص مما يخشون على أنفسهم، ويؤيد ذلك ما هو معروف في أخبارهم"[1].

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ عَنِ المَنِّ وَالسَّلْوَى- وَهُمَا اثْنَانِ- بِـ﴿طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾:

مِـنْ عَـظَـمَـةِ النَّـصِّ الْـقُـرْآنِيِّ وَفْـرَةُ الـمَـعَانِي الصَّحِيحَةِ التِي يَحْتَمِلُهَا

في الإخبار عن المنِّ والسَّلْوَى- في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾- بأنَّهما طعامٌ واحدٌ؛ أَوْجُهٌ[2]:

أوَّلها: أنَّهم كانوا يأكلون المنَّ بالسَّلْوَى مخلوطًا؛ فكان بهذا الاعتبار طعامًا واحدًا، ككثيرٍ من الأطعمة تُتَّخذُ من أطعمةٍ مختلفةٍ، ويكون لها اسمٌ واحدٌ.

ثانيها: أنَّ طعامَهُمُ المنُّ، وشرابَهم السَّلوى؛ فكانوا يجمعون بينهما في مائدة واحدة، فيأكلونَهُ طعامًا واحدًا، وهو قريبٌ من الأوَّلِ، وليس عَيْنَهُ.

ثالثها: أنَّ غذاءهم لمَّا كان ثابتًا في كلِّ يوم لا يتغيَّر؛ قيل عنه: طعامٌ واحدٌ، كما يُقال للمُداوم على الصَّلاة والصَّوم: هُو على أمرٍ واحدٍ؛ لملازمتِهِ لِذَلِكَ لا يتغَيَّر عَنْهُ، ولو كان الَّذي يُلازِمُهُ متعدِّدًا. وكقولهم: طعامُ مائدةِ الأمير واحدٌ، ولو كان أصنافًا شتّى، والمعنى: أنَّه لا يتبدَّلُ، ولا يتغيَّر باختلاف الأوقات.

فالمنّ والسّلوى طعامٌ واحدٌ بهذا الاعتبار؛ لكونِه لونًا واحدًا متكرِّرًا مستمرًّا لا يتغيَّر، فهو يُعْرَضُ بطريقةٍ واحدةٍ، والشَّيءُ المتكرِّرُ يُعدُّ شيئًا واحدًا، ولو تجدَّد، وتكرَّر.

رابعُها: أنَّهم جعلوه طعامًا واحدًا؛ لأنَّ المَنَّ وَالسَّلْوى مِن طعام أهل التَّلذُّذ والسَّرف، وكأنَّ القومَ كانُوا فلَّاحينَ؛ فما رَغِبُوا إلا فِيمَا أَلِفُوه.

خامسُها: أنَّهما عُدَّا طعامًا واحدًا؛ لكونِهمَا طعامَيْنِ سمَاوِيَّيْنِ؛ فكانا بهذا الاعتبار جنسًا واحدًا.

سَادِسها: لأنَّ العربَ تُعَبِّر عنِ الاثنَيْنِ بلَفْظِ الواحدِ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]، "والعَرَبُ تَفْعَلُ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/274.

(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/580، والثعلبي، الكشف والبيان: 3/336، وعبد القاهر الجرجاني، درج الدُّرر: 1/185، والآلوسي، روح المعاني: 1/274، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/181، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 249-1/248.

ذلك، إذَا أَشْرَكُوا بين اثنين؛ قَصَرُوا، فخَبَّرُوا عن أحدهما اسْتِغْنَاءً بذلك وتخفيفًا؛ لِمَعْرِفَة السَّامع بأنَّ الآخَرَ قَد شاركه، ودخل معه في ذلك الخبر"[1].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ (لَنَا):

شِـدَّةُ حِـرْصِ بَـنِـي إِسـرائِـيـل عَـلَى إِنْـفَـاذِ مَا يَشْتَهُونَ

تقديم الجارِّ والمجرورِ (لَنَا) من قول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، يحتمل أن يكون دالًّا على الاختصاص؛ لأنَّ تقديم ما حقُّه التأخير يُفيدُ ذلك كثيرًا؛ لدفع توهُّم أنَّ موسى عليه السلام يُشاركهم في شيءٍ من تلك الكراهة.

ويحتمِلُ أنَّ تقديمَ الجارِّ والمجرور يُرادُ به الاهتمامُ؛ إظهارًا لشدَّةِ حرصِهِمْ على ما سألوه، والاحتمالان واردان، لاسيَّما أنَّهما مفهومانِ من كلامِ القومِ لا من معيَّنٍ.

سِرُّ اخْتِيَارِ اسْمِ اللهِ (الرَّبِّ) دُونَ اسْمِهِ (اللهِ):

مِنْ دِلَالَاتِ اسْمِ الـلـهِ (الـرَّبِّ) إِحْسَانُهُ لِخَلْقِهِ وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِمْ

قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ دون (فادع لنا الله)؛ لما في (الرَّبِّ) من المعاني المناسبة لمطلوباتهم؛ فإنَّهم طلبوا شيئًا من جنس الإحسانِ والإنعامِ، وهو ضربٌ من الطَّعام -بصرف النَّظر عن دونيَّتِه لما في أيديهم- ولذا كان الأنسبُ التَّعبير باسم الله (الرّبِّ)، فإنَّه دالٌّ على تربيتِهِ لخلقِهِ بالنِّعَمِ وإحسانِهِ إليهم بِصُنُوفٍ من الإحسانِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ دُونَ (ادْعُ لَنَا رَبَّنَا):

عَـدَمُ خُـلُـوصِ الـعَـقِـيـدَةِ عِـنْـدَ بَـنِـي إِسـرائِـيـل وَعُـدُولُـهُـمْ عَـنِ الـصِّـدْقِ فِي النِّيَّاتِ

في التَّعبير عنهم بأنَّهم قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ دون أن يقولوا: (ادع لنا ربَّنَا) مع تَكرار هذه الصِّيغةِ مرَّاتٍ عديدةً: إيماءٌ إلى أنَّهم لم يرجعوا إلى الله تعالى بصدق النِّيَّةِ وخلوص العقيدة[2].

وكأنَّهم بتعبيرهم ذلك: لا يزالون في شكٍّ من أمر الله، وأنَّهم لا يَعُدُّونه ربًّا لهم بِقَدْرِ ما يعُدُّونَهُ ربًّا لموسى عليه السلام وحدَه، وفي هذا:

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/257.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 8/376.

جراءةٌ على مقام الرُّبوبيَّةِ، وجَحْدٌ لها، وهذا ليس أمرًا مستغربًا منهم؛ فقد سبق أن قالوا لموسى عليه السلام: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[1].

وفيه أيضًا دلالة على جفاءٍ عظيمٍ مِنْهُمْ، حتَّى كأنَّهم متبرّئُونَ مِن ربوبيَّةِ الله تعالى لهم[2]

نُكْتَةُ العُدُولِ مِنَ التَّعْبِيرِ بِـ: (أَنْ يُخْرِجَ لَنَا) إِلَى التَّعْبِيرِ بِـ ﴿يُخْرِجْ﴾:

جُزِمَ الفعلُ (يُخْرِجْ) من قول الله تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾؛ لأنَّه على تقدير الجزاء، والمعنى: ادع لنا ربَّك؛ فإنَّك إنْ تَدْعُهُ؛ يُخْرِجْ، أو أنَّ المعنى: ادعُ لنا ربَّكَ، وقل له: أَخْرِجْ؛ يُخْرِجْ[3]، والثَّاني له نظائرُ كثيرة في القرآن الكريم، مِنْهَا قول الله سبحانه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: 31]، إذ التقدير: قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ أقيموا الصلاة يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ، وأنفقوا.... ينفقوا.....، وقوله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: 53]، إذ التقدير: وَقُل لِّعِبَادِي: (قولوا ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ يقولوا)...

اليقينُ المعرفيُّ لا يُغني عن السُّلوكِ القويمِ

وجملة ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ هي مضمونُ مطلوبهم مِنْ موسى عليه السلام أن يدعُوَ به، وكان مقتضى الظَّاهر أن يقال: (أن يُخرجَ لنا)، فعدلَ عنه إلى فعلٍ مضارعٍ مجزومٍ في صورةِ جوابِ طلبِهم؛ للإشارة إلى وُثُوقِهم بدعاء نبيِّهم، وأنَّه إن دعا ربَّه سبحانه أجابَهُ، حتَّى كأنَّ إخراجَ ما تُنْبِتُ الأرضُ يحصُلُ بمجرَّدِ دعائِهِ ربَّهُ[4].

وفي هذا تَحْرِيضٌ لَهُ عَلَى الدُّعاءِ، حتَّى كأنَّهُ إِذَا لَم يفعل؛ فقد بَخِلَ عَلَيْهِم بما فيهِ منفَعَتُهم[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/152، ومحمّد المكّيّ النّاصريّ، التّيسير في أحاديث التّفسير: 1/49.
(2) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/211.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 2/581، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/211.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/522.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/522.

المَجَازُ العَقْلِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾:

الإعْـتِـمَـادُ بِـالـمَـادِّيَّـاتِ يُضعِفُ التَّوكُّلَ على الله

إسنادُ الإنباتِ إلى الأرضِ في قوله تعالى: ﴿تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ إسنادٌ مجازِيٌّ، من إقامة القابِلِ مُقامَ الفاعل؛ إذ المُنْبِتُ حقيقةً هو الله ﷻ، لكنْ لـمَّا جُعِلَت في الأرضِ قابليَّةُ الإنباتِ؛ نُسِبَ الإنباتُ إليها[1]، ونُكتة هذا الإسنادِ الإيماءُ إلى إغراقِهم في الاعتداد بالمادِّيَّات.

نُكْتَةُ فَصْلِ جملة: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

تَنْوِيرُ الاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ لِذِهْنِ المُتَلَقِّي

فُصِل قول الله ﷻ: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ عمَّا قبلُ؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤال أورَثَتْهُ الجملةُ السَّابقةُ؛ وهي قول الله سبحانه: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، فكأنَّه قيل: إنَّ هذا الطلب منهم لعجيب، فبمَ أجابهم موسى عليه السلام؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾[2].

وكون قائلِ ذلك هو موسَى نفسُه عليه السلام هو الأنسبُ بسياقِ النَّظْمِ، ويحتَمِلُ أن يكون القائلُ لهم ذلك الله تعالَى؛ لكون المقامِ مقامَ تَعْدَادِ النِّعَم[3].

دلالة الاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾:

طلبُ الأدنى مع تحقُّقِ الأعلى قلَّةُ توفيقٍ

الاستفهام في قول الله سبحانه: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ يُرادُ به الإنكارُ مع التَّوبيخ[4]؛ وذلك لرغبتِهم عَنِ الطَّعام الألذِّ، الواصلِ لهم مِن عند الله تعالى من دونِ واسطةِ أحدٍ، وهو في الحِلِّ بمنزلةٍ لا تتطرَّقُ إليه شُبْهَةٌ، ولا كُلفةَ ولا تعبَ في تحصيلِه[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/375، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/84، وأحمد الكورانيّ، غاية الأماني: 1/455.
(2) البقاعِيّ، نظم الدّرر: 1/414.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/275.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/377، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/182.
(5) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/182.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْهُبُوطِ:

دَنَـاءَةُ الطلبِ تـدلُّ على دنـاءَةِ النُّفُوسِ

يُستعمَلُ الهبوطُ لإرادة النُّزول من مكانٍ عالٍ إلى أسفلَ، ويُطلق مرادًا به الخروجُ من أرضٍ إلى أرضٍ مطلقًا، وهذا الإطلاقُ مجازٌ[1]، والظَّاهرُ أنَّ هذا المعنَى المجازيَّ هو المرادُ من قول اللَّه تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾، ونُكْتَةُ التَّعبير بالهبوطِ ههنا: الإيماءُ إلى دناءَةِ ما طلبُوه مقارنةً بالذي هُم فِيه.

دلالة الأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾:

مـن غـفـلَ عـن نعمةِ اللهِ، هبطَ في الغفلةِ

الأمر في قول اللَّه سبحانه: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ يُرادُ به الإباحةُ المشوبَةُ بالتَّوبيخِ؛ أي: إن كان هذا همَّكم؛ فاهبطوا، والتَّوبيخُ من أجلِ تذكُّرهم أيَّامَ ذلِّهم وتَعَبِهم، وتمنِّيهم العَوْدَةَ إلى تلكِ العيشَةِ، "كأنَّه يقول لهم: ارْجِعوا إلى ما كنتم فيه؛ إذْ لم تَقْدُروا قدرَ الفضائلِ النفسيَّةِ ونعمةِ الحريَّة والاستقلال"[2].

وذهب جماعةٌ إلى أنَّ الأمرَ يُرادُ به التَّعجيزُ؛ لأنَّهم كانُوا في التِّيه، فأمْرهم بهبوطِ مِصْرٍ مِنَ الأمصارِ أو بلادِ مصْرَ لا يُرَادُ به إلَّا التَّعجيزُ؛ إذِ المقام مقام إظهار عجزِهم عَن هذا الهبوطِ؛ لانسداد الطُّرق عَلَيْهِم؛ فإنَّهم لو عرَفوا طريقًا إلى شيءٍ مِن ذلك؛ لما بَقَوْا أربعين سنةً حائرين لا يهتدونَ إلى سبيلٍ مِنَ السُّبُلِ[3].

دلالة (مَا) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۖ﴾:

(مَا) في قول اللَّه سبحانه: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۖ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي، وقد حُذِفَ عائدُهُ، أي: فإنَّ لكم الذي سألتمُوهُ[4]، والإتيان بالاسم الموصول يُرادُ به: الإيماءُ إلى حقارةِ ما سألُوه بالنِّسبةِ إلى الذي رُزِقُوهُ مِن المنِّ والسَّلْوَى.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 3/338.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/524-525.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/429، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/182.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/380.

بَلَاغَةُ الاِسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾:

انْغِمَاسُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الذِّلَّةِ والمَسْكَنَةِ انغِمَاسًا كُلِّيًّا

في قول الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ استعارةٌ؛ إذ شُبِّهت الذلَّةُ والمَسْكَنَةُ في الإحاطة بهم واللُّزوم؛ بالقُبَّة المضروبةِ ليَلْزَمَهَا ساكنُهَا، فتكون محيطةً به، وهي استعارةٌ بالكنايةِ؛ ونُكْتَتُها: الإشعارُ بأنَّهم بلغُوا في الذِّلَّة والمسكنَةِ مبلغًا عظيمًا، حتَّى كأنَّهم منغمسونَ فيهما انغماسًا كلّيًّا، وهما محيطَتانِ بهم من كلِّ جِهَةٍ[1].

أو أنَّه قد شُبِّهَ لزومُ الذِّلَّة والمسكنةِ ولصوقُهما بلصوقِ الطِّين بالحائطِ[2]، وهذا مُشْعِرٌ بدَرَكِ الذِّلَّةِ والمسكنةِ التي وصلُوا إليهما، وفيه ضربٌ مِنَ الإذلالِ لهم ما ليس في الوجه الأوَّلِ؛ إذِ الطِّين الذي يُرادُ لصوقُهُ بالحائطِ يُرْمَى به تُجَاهَهُ؛ ليشتدَّ تعلقُّه به، فكذلك هؤلاءِ قد ارتَمَوْا في الذِّلّة والمسكنةِ ارتماءً ، فلزِمُوهُمَا.

ويحتمل أن يكون ذلك مِن قولهم: ضُرِبَ عليه كذا؛ إذا أُلْزِمَهُ، كما يُضرَب المِسْمَارُ على الشَّيءِ، فيلزمُهُ[3].

والأوَّلُ أشْهَرُ في العربيَّةِ، ولا مانعَ من تضمينِ هذه المعاني جميعًا؛ لعدم التَّعارُضِ بينهَا، ولاشتراكِهَا في أصل المعنَى، وهو اللُّزومُ.

وتخريج الأسلوبِ الآنِفِ الذِّكْرِ على الاستعارةِ، لا ينافي -بالنَّظَرِ إلى لازمِ المعنى- كونَهُ كنايةً عن كونهم أذلَّاءَ صاغِرينَ[4]، كقول زيادٍ الأعجَمِ[5]:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى *** فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/534، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/380، وابن النَّجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 3/342، والبقاعي، نظم الدّرر: 1/417، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/527.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/527.

(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/589.

(4) أحمد الكورانّي، غاية الأماني: 1/458-459، والآلوسّي، روح المعاني: 1/276، ومحمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/55.

(5) شعر زياد الأعجم، تح: يوسف بكّار، ص: 49، والنُّوَيريّ، نهاية الأرَب: 7/60.

نُكْتَةُ بِنَاءِ الفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾:

تعليمُ مُرَاعَاةِ الأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعَالَى فِي الأَلْفَاظِ

بِنَاءُ الفعل لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه (وَضُرِبَتْ) في قوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، فيه تعظيمٌ لله تعالى ومراعاةٌ لِلْأدبِ معَهُ سُبحانه، ولأنَّ هذا الْبِنَاءَ مُشعرٌ بالعمُوم، فيشمَلُ إذلالَ اللهِ تعالى لهم، وإذلالَ النَّاسِ لهم، وقد جرت عادة القرآن على نسبة الخير إلى الله ونسبة الشَّرِّ إلى غيره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7]، حيث صرَّح بالخِطاب عند ذِكر النِّعمة فقال: أَنْعَمْتَ عليهم، ثم زَوَى لفظ الغضب عن الله تعالى أدبًا ولُطفًا؛ فلم يقل: غَضِبْتَ عليهم، ويُشيرُ إلى هذا قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1].

سِرُّ تَنْكِيرِ الغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

عِظَمُ العَذَابِ مِنْ عِظَمِ الجُرْمِ

تنكيرُ الغضبِ في قول الله سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ والتَّفخيمُ، فهم قد باؤُوا بغضبٍ عظيمٍ؛ لعِظَمِ جُرْمِهم وشناعَةِ صنيعِهم، وجرأتِهِمْ على الملك الأعْظَمِ.

وزَادَ الغضبَ دلالة على التَّعظيم وصفُهُ بـ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ صفةٌ لـ (غَضَبٍ)، فأفاد مجموعُ ذلك: كونَهم باؤُوا بغضبٍ مؤكَّدٍ؛ فقد اجتمعت الفخامةُ الذَّاتيَّة المستفادة من تنكير الغضب، والفخامةُ الإضافيَّةُ المستفادةُ من إضافتها إلى الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾[2].

---

(1) رواه مسلم، حديث رقم: (771).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/419، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/107، والآلوسّي، روح المعاني: 1/277.

سِرُّ تَرْتِيبِ العُقُوبَاتِ الحَالَّةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ:

تَرْتِيبُ العُقُوبَاتِ موافقٌ لترتيبِ المعاصي

جاءت العقوباتُ الواقعة على بني إسرائيل مرتَّبَةً بنسقٍ فريدٍ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ فبُدِئَ بضرب الذِّلَّة، ثم بِضرب المسكنة، ثم ذُكر غضب الله تعالى عليهم، وهو ترتيبٌ للعقوباتِ على وجهِ التَّرقِّي، أي: الشَّديد فالأشدّ.

فأوَّلها: الذِّلَّةُ؛ وهو هوانٌ تجيءُ أسبابهُ من الخارجِ؛ كأن يُغلبَ المرءُ على أمره؛ جرَّاء انتصارِ عَدُوٍّ عليه، فيصير ذليلًا لهذا العدُوِّ.

وثانيها: المسكنةُ؛ وهي هوان ناشئٌ من داخل النَّفسِ، جرَّاء بُعدها عن الحقِّ واستيلاءِ الباطلِ عليها، فالمسكنةُ بهذا الاعتبارِ أشدُّ.

وثالثُها: غضَب اللهِ تعالى عليهم؛ وهذا أشدُّ عقوباتِهم[1].

وهذا التَّدرُّجُ في التَّرتِيبِ أوقعُ في النَّفْسِ وأرهَبُ للقَلْبِ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي تَقْدِيمِ المَسْكَنَةِ عَلَى الغَضَبِ وَالعَكْسِ:

بَرَاعَةُ النَّظْمِ القُرآنِيِّ في التَّقْدِيمِ والتَّأخيرِ

وردَ في الآية التي بين أيدينا من سورة البقرة تقديمُ المسكنَةِ على الغضب؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وورد في سورة آل عمرانَ تقديمُ الغضبِ على المسكنة؛ إذْ قال سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: 112]، ووجهُ تَقْدِيمِ المَسْكَنَةِ عَلَى الْغَضَبِ وَالعَكْسِ: أنَّهم لَمَّا تقدَّم في سورة البقرة ذكرُ سؤالِهم عن ما فيه خسَّةٌ في المأكل، وما يستلزمُ ذلك مِنَ الذّلّ والصَّغار؛ إذ طلبوا الأدنى؛ لِيَعْتَاضُوا به عمَّا هو خيرٌ؛ ناسبَ ذلكَ أن تُذكر المسكنَةُ، ثُمَّ أعقبها بما باؤوا به مِن غضب اللهِ تعالى، بخلاف الذي في سورة آل

(1) محمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/153.

عمران؛ فإنَّ قبلَهُ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: 111]، فكان الأنسبُ تقديمَ ما لا نُصرةَ لهم معه ولا فلاحَ؛ وهو ما باؤوا به مِن غضَبِ الله سبحانه، فكان كلُّ موضعٍ ملائمًا للسِّياقِ الواردِ فيه[1].

نُكْتَةُ فَصْلِ جملةِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

فَائِدَةُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِظْهَارِ العِلَلِ المسؤولِ عنها

فُصِل قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ عمَّا قبلُ؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا، فالجملةُ ناشئةٌ عن سؤالٍ أورَثَهُ ما ذُكِرَ ممَّا شُنِّعَ عليهم بهِ من لزوم الذِّلَّة والمسكنَة[2]، والتَّقدير: ما سببُ هذه العقوبةِ الفظيعَةِ؟ فجاء الجواب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

دلالة اسمِ الإشَارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عِظَمُ العقُوبَةِ بحسَبِ فظَاعَةِ الذَّنْبِ

اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على البُعْدِ، وفيه إيماءٌ إلى عِظَمِ الأمرِ الذي حلَّ بهم وفظاعَتِهِ؛ مِنَ ضربِ الذِّلّة والمسكنةِ والبَوءِ بالغضبِ العظيم.

ويحتملُ أن تكون الإشارةُ إلى اهتمامِهم بأمر المعاش واعتنائهم بشهوات النُّفوس، وبناءً عَلَيْهِ؛ فالإشارةُ دالَّةٌ على البُعْدِ في الانحطاطِ؛ لخسَّةِ مطلوبَاتِهم[3].

نُكْتَةُ التَّعبير بالفعلِ المُضَارِع ﴿يَكْفُرُونَ﴾:

بُلُوغُ اليَهُود في العِنَاد مبلَغًا عَظِيمًا حتَّى صار مِن جُملة طِبَاعِهِم

التَّعبير بالفعل المضارع (يَكْفُرُونَ) في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادة التَّجدّد والاستمرار، أي: أنَّهم مستمرّون في كفرهم بآيات الله تعالى ماضُونَ في ذلك، متجدِّدٌ هذا الكُفْرُ فيهم؛ كلَّما تَجدَّدت آياتُ اللهِ سبحانَهُ، وهذا غايةٌ في العناد.

---

(1) ابن الزّبير الغَرناطيّ، ملاك التَّأويل: 1/40-41.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/529.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/419، والآلوسّي، روح المعاني: 1/277.

ويُؤيِّدُهُ: التَّعبير بـ ﴿كَانُواْ﴾، مُشْعِرَةً بأنَّه ديدَنُهم في الماضي، وهم مستمرُّون فيه، حتَّى صار طبعًا لهم وجِبِلَّةً وخُلُقًا قائمًا بهم[1].

فَائِدَةُ الإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:

الكُفْرُ بِمَا جاءَ عَنِ العَظِيمِ عَظِيمٌ

إضافةُ الآياتِ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به زيادةُ التَّشنيعِ عليهم؛ إذ الكفرُ بما جاء عَنِ العظيم الجليل بالغٌ في الشَّناعةِ غايَتَها[2].

ويزيدُ الأمرَ شناعةً جمعُ الآياتِ؛ فهم إن كَفَرُوا بآية واحدةٍ من آيات اللَّه تعالى كان ذلك شنيعًا، فكيف، وقد كفروا بآياتٍ؟

سِرُّ تَقْيِيدِ قَتْلِ النَّبِيِّينَ بِكَوْنِهِ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾:

فائدةُ تقييد قتلهم النَّبيِّين بغير الحق في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مع أنَّ قتل النبيِّ لا ينقسم إلى قتلٍ بحقٍّ وقتل بغير حقٍّ، بل ما وقع مِن قتلهم، إنَّما هُوَ بغير حقٍّ قطعًا؛ لِما عُلِمَ بالاضطرارِ من أنَّ النبيِّين معصومونَ من أن يصدرَ منهم شيءٌ يستحقُّون القتلَ بسببِه، وإنَّما جيءَ بهذا القيد ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لنكَاتٍ[3]:

أوَّلها: أنَّ ذلك على سبيل التَّأكيد، كالوارد في قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، وكقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: 117].

قَبِيحُ جُرمِ اليهُود وشناعَةُ عُدوانِهم علَى أَنْبِيَائِهم

ثانيها: تعظيمُ جرُمهم وذنبِهم الذي أتوهُ وتقبيحُهُ، وزيادةٌ في تشنيع عدوانِهم.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 1/420.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/277.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/534-535، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/432، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/382-383، والبقاعي، نظم الدّرر: 1/421، والقُونَوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 3/347-348، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/277، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 53، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/55.

ثالثها: أنَّ قتل الأنبياء، وإن كان لا يقع إلَّا بغير حقٍّ، إلَّا أنَّ هذا لا ينفي أن تكُون ثَمّةَ شبهةٌ؛ كظَنِّ تَنَبُّئِهِمْ ، فوقع ذَمُّ هؤلاءِ على الإقدام علَى إراقة الدَّم مع علمهم بصدقِ نُبُوَّتِهِمْ، وذلك أنَّ الباطِلَ قد يأتيه أحدٌ ما معتقدًا كونَهُ حقًّا؛ لشبهة وقعت في قلبِه، وقد يأتيه عالمًا بكونِه باطِلًا، والثَّاني أقبَحُ، أي: أنَّهم قتَلُوا النبيِّين دون أن يكون قتلُهُم لَهُمْ حقًّا في اعتقادهم وظنِّهم، بل كانوا عالِمين بشناعتِهِ وقُبحه، ومع ذلك فقد أقدمُوا عَلَيْهِ.

نُكْتَةُ عَطْفِ قَتْلِ النَّبِيِّينَ عَلَى الكُفْرِ بِآيَاتِ اللهِ:

التَّرقِّي في ذِكْرِ العظَائِمِ المُوجِبَةِ لِلْعَذَاب

عطفُ قتلِ النَبيِّين على الكفر بآياتِ الله تعالى في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ يحتملُ أن يكون من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لكونِ قتل النَّبيِّ من جملةِ الكفرِ العَمَلِيِّ الذي يُضادُّ الإيمانَ[1]، ويكون نُكتةُ هذا العطفِ الإشعارَ بشناعَةِ قتلِ النبيِّينَ؛ لأنَّه أمرٌ زائدٌ على الكفر بآيات اللهِ تعالى؛ لأنَّه لا يُقْدِمُ على قتلِ النَّبيِّ إلَّا كافرٌ بآيات اللهِ سبحانه، وليس كلُّ من كفر بآيات الله ﷻ يقتلُ نبيًّا؛ فكان قتلُ النَّبيِّ بِهَذَا الاعتبار أشنعَ وأقبَحَ.

ويحتَمِلُ أن يكون من عطفِ المتباينَيْن، كما مال إليه الفَخْرُ[2].

وعلى كلَا الوجهين فالعطفُ من بابِ التَّرقِّي؛ بذكر الجُرمِ، ثُمَّ الذي هو أعظَمُ، بالاعتبار الذي تقدَّمَ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ البَيَانِ القُرْآنِيِّ في انتِقَاءِ الألفَاظِ والأبنِيَةِ المُنَاسِبَةِ لِلسِّيَاق

وردَ ههنا قول الله تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾، وجاء في سورة آل عمران نظيرُها في المعنى مع اختلاف اللَّفْظِ وهو قول الله سبحانه: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: 112]، والفرق بينهما مِنْ وَجْهَيْن:

(1) ابن القيّم، الصّلاة وأحكام تاركها، ص: 57.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/534.

أحدهما: أنَّ الجمعَ في سورة البقرةِ جمعُ مذكر سالم، وفي آل عمرانَ جمعُ تكسيرٍ.

الآخر: أنَّ الحقَّ في سورة البقرة وردَ معرَّفًا، وفي آل عمران جاء مُنَكَّرًا.

وتوجيه ذلك أن يُقالَ[1]:

أوَّلًا: المغايرة بين جمع (النَّبيِّ) جمعَ مذكر سالم وجمعِهِ جمعَ تكسيرٍ.

أنَّ آيةَ آلِ عمران المتقدِّمَ ذكرُها جاءت في سياقٍ أشدَّ ذمًّا وتشنيعًا مِنَ الواردِ في سورة البقرة، وقد دلَّ على ذلك أنَّ الله تعالى جَمَعَ لَهُم في سورة البقرة بينَ الذِّلّة والمسكنة، فقال سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، بخلاف ما في آل عمران؛ فقد جاء ذلك مكرَّرًا ومؤكّدًا، فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ و ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾، وجاء أيضًا على وجه التَّعميم، فقال ﷻ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾، فلمَّا كان السِّياقُ في آل عمرانَ أشدَّ ذمًّا وتشنيعًا؛ كان الأنسب أن يُجمعَ النَّبيُّ جمعًا دالًّا على الكثرة، فجُمِعَ جمع تكسير ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾، أي: يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغير حقٍّ، بخلاف ما في البقرة؛ فجاء جمعًا دالًّا على القلَّةِ بإيرادِهِ جمع مذكر سالم (لِّنُبَيِّنَ).

ثانيا: المغايرَةُ بين تعريف الحقِّ وتَنْكِيرِه، وفي ذلك ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدهما: أنَّ ما في سورة البقرة يُشير إلى الحقِّ الذي أذِنَ الله تعالى أن تُقتلَ النَّفْسُ به، وهو المرادُ بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 151]، فكان الأَوْلَى ذِكره معرّفًا؛ لأنَّه مِنَ الله ﷻ، وما في آل عمرانَ يُرادُ به: بغيرِ حقٍّ في اعتقادِهم، فكان هذا أولَى بالتَّنكير.

الثاني: أنَّ المرادَ بالحقِّ في سورة البقرة ما تقدَّمَ في الوجه الأوَّلِ، وأمَّا الحقُّ المُنكَّر في سورة آل عمران؛ فالمراد به: تأكيدُ العموم ، فإنَّه نكرةٌ في سياق النَّفي، فتعمُّ، أي: لَم يَكُنْ ثَمَّ حقٌّ، لا الذي أذِنَ الله تعالى أن تُقتل النَّفسُ به -وهو: الكفرُ بعدَ الإيمانِ، والزِّنا بعد الإحصان، وقتلُ نفسٍ عمدًا عدوانًا- ولا غيرُهُ البتَّة.

الثالث: أنَّ مقام التَّشنيعِ والذَّمِّ في سورة آل عمرانَ أقوَى وأظهرُ مِنْهُ في سورة البقرةِ -وكلاهما ذمٌّ وتشنيعٌ-، فجِيءَ بالتَّنكير في مقام المبالغة في ذمِّهم وزيادةِ التَّشنيعِ عَلَيْهِم.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/535، ومحمود الكرمانّي، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 75-74.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾:

مِن قَبَائِحِ اليهُودِ دوامُ سَعْيِهِم في قَتْلِ الأنبِيَاءِ

جاء التَّعبير عَن قَتْلهم النَّبيِّين بصيغة المضارع في قول الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، وفي ذلك نُكْتَتَانِ[1]:

إحداهما: استحضارُ تلك الصُّورة الشَّنيعةِ الذَّميمةِ.

والأخرى: الدّلالة على تجدُّدِ القتل فيهم؛ كُلَّما جَدَّ فيهم نَبِيٌّ، وهذا غايةٌ في القُبْحِ والفظاعَةِ، بل إنَّ فيه إيماءً إلى أنَّهم كانُوا يَسْعَوْنَ في قتل النَبِيِّ محمَّدٍ ﷺ.

دلالة اسمِ الإشَارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

شَنَاعَةُ الكُفْرِ بآياتِ اللهِ تعالَى وفَظَاعَةُ قَتْلِ النَّبِيِّ

اسمُ الإشارةِ (ذلك) من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ الدَّالُّ على البَعِيدِ، فيه إشارةٌ على الأمر العظيمِ الصَّادر مِنْهُمْ مِنَ الكُفْرِ والقتلِ[2].

نُكْتَةُ ذكرِ (كَانُوا) مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾:

العِصْيَانُ وَالاعْتِدَاء طَبْعَانِ فِي اليَهُودِ

ذكرُ (كَانُوا) في قول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾؛ للتَّنبيه على دوامِ اعتدائِهم واستمرارِهم فيه.

وانضمَّ إلى دلالة (كَانُوا) على الدَّوام والاستمرار: الإتيانُ بـ ﴿يَعْتَدُونَ﴾ بصيغة المضارعِ؛ فأفادَ مجموعُ ذلك: أنَّهم مداومون على الاعتداء، مستمرُّونَ فيه، وأنَّ ذلك أمرٌ متجَدِّدٌ فيهم، حتَّى صار طبعًا وجِبِلَّةً لهم[3].

حُسْنُ التَّرْتِيبِ:

دِقَّةُ البَيَانِ القُرآنِي في تَرْتِيبِ المَعْطُوفَاتِ

ذَكَرَ اللهُ سبحانه علَّةَ إنزالِ العقوبة بهم، فَعدَّدَ جرائمَهم قائلًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾، وهذا في غاية الحسن في التَّرتيب،

(1) أحمد الكورانِي، غاية الأماني: 1/459-460.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/421.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/421.

فإنَّهُ بدأ بما فعلوه في حقِّه سبحانه، وهو جحدُهم لآيات الله ﷻ، ثُم ثنَّاه بما هو أعظَمُ؛ وهو قتلُ الأنبياء -لكون قاتل النَّبيِّ جاحدًا لآيات اللهِ تعالى، فيكون جامعًا بين مُوجبَيْن من موجباتِ الكفر- ثُمَّ ذكر سببَ ذلك وهو صُدُورُ المعاصي عنهم، والاعتداء على الآخرين[1].

فَائِدَةُ ذِكْرِ الِاعْتِدَاءِ بَعْدَ الْعِصْيَانِ:

تَـــعْـــدَادُ الـمُـخَـالَـفَـاتِ أَدْخَلُ فِي التَّقْرِيعِ وَالتَّبْكِيتِ

ذِكْرُ الاعتداءِ بعدَ العصيان في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ تأكيدٌ بتَكْرَار الشَّيء بغير لفظِهِ الأوَّلِ؛ بيانًا لعلَّةِ الجزاءِ المذكورِ قبلُ، وفيه: زيادَةُ التَّبكيتِ والتَّقريعِ، فهو كقول الرَّجُلِ لخادِمِهِ وقد صدرت منه مخالفاتٌ من قبلُ، ثمَّ عاقبَهُ سيِّدُهُ عند آخرها: هذا بما عصيتَني، وخالفتَ أمري، أو يقول: هذا بما تجرَّأتَ على مخالفتِي، واغترَرْتَ بحِلْمِي، ونحو هذا؛ فيُعَدِّدُ عليه مخالفاتِهِ بألفاظٍ متغايرةٍ بيانًا لعلَّةِ العقابِ، وتبكيتًا له وتقريعًا[2]، وهو انتقالٌ من المعاصي العامَّة، إلى المعاصي التي فيها اعتداءٌ على حقوقِ النَّاسِ.

بَلَاغَةُ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ:

جَـمْـعُ الْـيَـهُـودِ بَـيْنَ الْـجَـرَائِـمِ إِمْعَانٌ مِنْهُمْ فِي الْعِصْيَانِ

في قول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ لفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّبٌ، فإنَّ العصيانَ راجعٌ إلى كفرِهم بآيات الله تعالى، والاعتداءَ عائدٌ إلى قَتْلِ النَّبيِّين؛ ووجهُ ذلك أنَّ الاعتداءَ ههنا يُرادُ به الإمعانُ في العِصيانِ، وهو مناسبٌ لقتل النَّبيِّين؛ لأنَّهُ أشنعُ وأقبحُ مِنَ الكُفر بآيات اللهِ تعالى، من جِهَة أنَّ قاتِلَ النَّبِيِّ لا يكونُ إلَّا كافرًا بآيات اللهِ سبحانه، فيكون قد جمع بين جُرمَيْنِ إمعانًا في العصيانِ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/535.

(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 3/535، وهْبَة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 1/173.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

بَدَّلَ وَأَبْدَلَ:

ذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أنَّ التَّبديل والإبدالَ بمعنًى واحدٍ، ومثلُهما: الاستبدالُ؛ ومعنى الجميع: جعل شيءٍ مكان آخر[1].

وفرَّق آخرونَ بين التَّبديل والإبدال[2] بأنَّ التَّبديلَ: التَّغييرُ من غير إزالة العين، بخلاف الإبدال؛ فإنَّه تغييرٌ معَ إزالةِ العَين، وهو معنى قول أبي العبَّاس ثعلب: "التبديل: تغييرُ صورةٍ إلى صورة أخرى، والجوهرةِ بعَيْنِها، والإبدالُ: تنحيةُ الجوهرةِ، واستئنافُ جوهرةٍ أخرى"[3]، وهذا هو المشهورُ في الفَرْقِ بَيْنَهُما.

وفرَّق جماعةٌ من أهل العلم بينَهُما من وجهٍ آخر[4]؛ وهو أنَّ التَّبديلَ: التَّغييرُ، وإن لم يُؤتَ بِبدَلِهِ، بخلاف الإبدال: هو التَّغييرُ مع الإتيان بِبَدَلِهِ، فالتَّبديلُ أَعمُّ -عَلَى هذَا- عمومًا مطلقًا.

الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ:

الذّلّة والذّلّ: الخضوع واللّين والانقياد، وأمَّا الصَّغارُ؛ فهو القِلّة والحقارة والهَوَان.

وهُمَا يشتركان في مطلق الخُضوع والهَوان، ويَفْتَرِقانِ من وجهين[5]:

أحدهما: أنَّ الصَّغارَ: هو الرِّضا بهذا الهوانِ والمنزلة الدَّنيَّةِ، أو هو الانْحِطاط إلى تلك الرُّتبة بعد عِزٍّ وشرفٍ، وأمَّا الذّلّة: فلا تستلزم الرضا، فتكون الذِّلَّةُ من هذه الحيثية أعَمَّ.

ثانيهما: أنَّ في الذّلّةِ معنى القَهْرِ بقُوَّة خارجيَّةٍ، بخلاف الصَّغارِ؛ فلا يلزَمُ أن يكونَ فيه قهرٌ؛ إذ هو رضا المرءِ بالهوانِ، وقد يكون داعِيهِ دناءَةَ نفسِ المرءِ لا قُوَّةَ القهرِ، فيكون الصَّغارُ من هذه الحيثيَّةِ أَعَمَّ.

والحاصلُ: أنَّ الذِّلَّةَ أعمُّ من وجهٍ، والصغَّارَ أعمُّ من وجهٍ آخرَ.

---

(1) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (بدل)، والدّرّ المصون: 1/380.

(2) الثَّعلبي، الكشف والبيان: 10/18، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 5/195، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/324، والسَّمين، الدّرّ المصون: 1/380.

(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 6/529.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 2/165.

(5) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 261-260.

الغَضَب وَالسُّخْط:

الفرقُ بينَهُما مِن وجهين[1]:

أحدهما: أنَّ الغضَبَ يكون مِن الصَّغير على الكبِير، ومِنَ الكبِير على الصَّغير، بخلاف السُّخْط؛ فلا يكون إلَّا مِنَ الكبير على الصَّغير.

الآخر: أنَّ الغضبَ هو اشتدادُ السُّخْطِ، فهو أخصُّ.

وبهذا يتبيَّنُ أَنَّ الغضبَ أعمُّ مِنَ السُّخْطِ من وجهٍ، وأخصُّ مِنْهُ مِنْ وجهٍ آخرَ.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 130.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»